الباب السادس

إسهام الإسلام في الحضارة العالمية:

* الشرق والغرب
* اللغة العربية
* التعليم والكتب
* النهضة العلمية
* الطب في مجالي البحث والممارسة
* الأدب
* الاقتصاد والتجارة وشئون المواصلات

obeikandl.com

obeikandl.com

ويشتمل على :

١ ــ الشرق والغرب :

* أسهم الشرق الاسلامى ــ فى نفس الوقت الذى أنتج العقل الأوروبى فيه الكاتدرائيات ذات الفن القوطى المعمارى ، وظهر فيــه الصراع على الانفراد بالسيادة والسلطة بين القيصر والبابا ، وازدهرت فيه مثالية الفروسية ــ فى الحضارة العالمية ــ تحت ظل حماية القوة النامية منذ القرن الثامن الميلادى ــ بانجازاته الضخمة فى مجالى : الفكر والفن ، ولم يتوقف تيار التجديد والمعرفة حتى طمر التيار المغولى منبعه النقى الفياض ، لكن ما أفاضه ظل يتقلب فى صور مختلفة عبر قرون مليئة بالأحداث والتقلبات العنيفة حتى عصرنا الحالى .

* لم تزدهر التجارة والزراعة والصناعة فقط فى القرنين الثامن والتاســع الميلادى ازدهارا لم يتوقعه أحد ، بل تدفق تيار فكرى ، احتوى ما فى آسيا وأوروبا ، وصبه فى قلب المملكة الاسلامية ، التى هضمته ، وصاغته صياغة جديدة ، فكان هذا هو البذرة التى أنبتت الحضارة الاسلامية العربية ، فأصبحت بغداد لؤلؤة المدن فى كل بقاع العالم الاسلامى ، من الهند حتى اسبانيا ، ومن البحر الأسود حتى الجنوب العربى . حدث هذا فى عصر القرون الوسطى الأوروبى ، ولكنه لم يكن قرونا وسطى بالنسبة للعالم الاسلامى ، بل كان أسمى العصور وأبهاها ، عصر النموذج الحضارى الذى استمر ألف عام ، فأنقذ الشرق من ظلام العصور الغابرة .

* تكمن أصالة هذه الخصائص الحضارية فى العالم الاسلامى ، فلم يكن ظهور التيار الحضارى فجائيا ، يظهر ويختفى مثــل الظواهر الطبيعية ، بل كان معالم حقبة عظيمة ، امتد تأثيرها الفكرى ــ حتى بعد التدهور السياسى ــ فى جميع أنحاء العالم ، فأنتج فى مجالات عديدة ، لم تبحث كل جوانبها حتى الآن .

٢ ــ اللغة العربية :

* انتشرت اللغة العربية مع الفتح الاسلامى فى خطين متوازيين ؛ اذ تسبب عدم جواز قراءة القرآن الكريم الا باللغة العربية (١) فى دفع كل مسلم الى محاولة تعلمها ، كذلك كان استعمال اللغة العربية فى ادارات الدولة من عوامل انتشارها فى مناطق الدولة المتعددة ؛ فدخلت كلمات كثيرة منها فى لغات ولهجات الشعوب الأخرى ؛ وبالاضافة الى هذا فقد استعملت اللغة العربية فى مجال الدين والعلم عند الأتراك والفارسيين ؛ والهنود ؛ والملاويين . وكما اقتبست اللغات الأوروبية مصطلحات عديدة من اللغة اللاتينية واستعملت حروفها فى الكتابة ، دخلت أيضا كلمات عربية فى اللغات : التركية ؛ والأوردية ؛ والفارسية ؛ واستخدم الخط العربى فى كتابتها .

* وصلت الحضارة العربية الى أوروبا عن طريق اسبانيا ؛ فحملت معها تعبيرات لغوية ؛ يستعملها السكان الآن دون أن يعرفوا مصدرها ؛ فالأسبانيون يستعملون كلمات عربية عديدة فى لغة تخاطبهم ؛ كذلك تذكرنا الكلمات العربية التى تستعمل فى اللغة الالمانية . بعصر ازدهار الاسلام . فهناك العديد من الكلمات العربية المستعملة فى كل مجالات الحياة اليومية ؛ وفى مجال علم الطبيعة ؛ فمثلا :

كلمة « Alkohol » هى الكلمة العربية : « الكحول » .

وكلمة « Sirup » محرفة من كلمة : « شراب » .

---

(١) اختلف العلماء فى جواز ترجمة القرآن الكريم الى اللغات الأخرى فحرمها بعضهم تحريما قاطعا استنادا الى أن الوحى هو كلام الله المنزل على نبيه باللغة العربية ، ، فاذا ترجم ذهبت عنه هذه الصفة ، لأنه ــ بعد ترجمته ــ تعبير المترجم لمعنى القرآن ، وليس هو القرآن ، لأن الصياغة اللغوية تختلف من شخص لآخر ، ولذا فهى تحمل ملامح المترجم الفكرية ، فتخرج بذلك عن دائرة الوحى ، غير أن بعضهم أجاز ترجمة معانى القرآن الكريم ويعتبرون ما ترجم الى اللغات ــ عن طريق المستشرقين ــ انما هو ترجمة لمعانى القرآن وليس لنصه ، وعليه فلا يجوز قراءة القرآن بغير اللغة العربية الا على اعتبار أنها ترجمة لمعناه . وبقصد التعليم ــ لا للتعبد ــ لمن عجز عن تعلم اللغة العربية ، فهو يقرؤها لمعرفة ما فيه من أحكام وتشريع . هذا فى غير الصلاة ، أما فى الصلاة فالراجح عدم جواز قراءة الفاتحة الا باللغة العربية .

وكلمـــة « Damast » مأخوذة من كلمة : « الدمقس » •

وكلمـــة « Maguzin » من كلمة « مخزن » •

وكلمـــة « Gitarre » من كلمة : « قيثارة » •

وكلمـــة « Algebra » هى كلمة « الجبر » •

وكثير غيرهـــا •

* قدمت اللغة العربية للعالم خدمة جليلة • فى مجال المعرفة ؛ فهومدين بالشكر للدور الذى قام به العرب فى حفظ الثقافة الاغريقية • فقد بدأ اهتمام العرب بما أنتجته الشعوب ــ سواء كانت خاضعة للدولة الاسلامية أو مجاورة لهـــا ــ فى العصر العباسى ؛ حيث ترجمت العلوم والمعارف من اليونانية والفارسية ــ ومن الهند أيضـــا ــ الى اللغة العربية ، وكان الاهتمام الأكبر فى الترجمة منصبا على ما دون فى اللغة اليونانية فى مجالات الرياضة والفلك والجغرافيا والطب ، فأوصل ذلك الى الاهتمام أيضـــا بالفلسفة وعلوم الطبيعة •

* لو لم يقم العرب بهذا المجهود الضخم فى مجال المعرفة لفقدنا كثيرا مما نتمتع به الآن فى عالم الثقافة من العلوم والمعارف اليونانية ــ أو لتأخر على الأقل انتفاعنا به دهورا طويلة ــ فما لم يصلنا مباشرة من اللغة اليونانية أخذناه مما ترجمه العرب الى اللغة العربية • غير أن الاهتمام بالحضارة اليونانية كان من الدوافع القوية لظهور حضارة عربية اسلامية أصيلة ، اتخذت بغداد مركزا لهـــا ؛ تلك المدينة الزاهرة ــ فى وقت كان ظلام العصور الوسطى مخيما على أوروبا ــ التى اجتمع فيها التجارة والسياحة مع تبادل الأفكار والفنون والعلوم ، فبدت فى منتدياتها معالم الثراء ، وفى قصورها أبهة العظمة والسلطان •

٣ ــ التعليم والكتب :

* تطور نوع خاص من طبقة الاقطاع فى المملكة الاسلامية تطورا كبيرا جدا ولكن الشعب على اختلاف طبقاته لعب دورا مهما فى الحياة الثقافية ، ولا يمكن أن يحدث هذا الا فى حالة انتشار التعليم انتشارا واسعا ؛ فقد تسابق كل من المذهب السنى والشيعى فى كسب المزيد من الأتباع فى المجتمع الاســـلامى ؛ فأدى ذلك الى بذل الجهد فى كلا

المذهبين لانشـــاء مدارس لتعليم الناس مبادىء المذهب واتجاهاته وعليه فقد انتشرت المدارس منذ القرن العاشر الميلادى فى جميع مناطق العالم الاسلامى من اسبانيا عبر شمال افريقيا حتى بلاد فارس ، والتحق بها الأطفال من سن السابعة ، وكانت مواد التعليم فيها : القراءة والكتابة وحفظ القرآن ، ثم يختار الطـــالب بعد ذلك مواد أخـــرى مثل : تحسين الخطوط ، والعلوم الدينية والحساب والشعر ، ثم أنشئت فيما بعد مدارس لاعداد الدارسين لتولى مناصب مختلفة فى أنحاء الدولة فكان مستواها عاليا .

* واختير للتدريس بها علماء مشهورون ، وكانت المدرسة النظامية التى أنشأها الوزير السلجوقى نظام الملك فى بغداد عام ١٠٦٥ م نموذجا يحتذى فى كل ما أنشىء بعدها من مدارس ، سواء فى اعداد سكن خاص للدارسين ، أو فى المواد التى كانوا يدرسونها وهى : العلوم الدينية ، وعلوم اللغـــة العربية ، والفقه والتاريخ والطبيعة من زاوية اتصالها بالدين . انتشرت المدارس المماثلة لهذه المدرسة فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، وكان عدد المقبولين فيها محدودا ، حصل المتفوقون منهم على منح دراسية .

* أمدت المدارس العليا التى أنشئت فى قرطبة و « سيفيلا » و « توليدو » .. باسبانيا الحياة الثقافية الأوروبية بروافد حملت معها عناصر الخصوبة ، وبدأ هذا بترجمة الكتب العربية الى اللغة اللاتينية فقد أنشىء لهذا الغرض مدرسة للترجمة فى « توليدو » فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى ، فضمت مكتبتها العديد من المراجع العربية التى أعدت للترجمة الى اللاتينية . وجدير بالذكر هنا أن اللغة العربية كانت فى ذلك الوقت لغة المثقفين .

* تعلم العرب صناعة الورق من الصينيين بعد فتح سمرقند فى منتصف القرن الثامن الميلادى ، فأنشىء فى بغداد مصنع للورق ، ثم انتشرت هذه الصناعة فى غضون ستة قرون عبر شمال افريقيا واسبانيا وفرنسا حتى وصلت الى انجلترا ، الا أن تجارة الكتب ازدهرت فى بغداد منذ نهاية القرن التاسع الميلادى ، فربح العلماء والطلاب كثيرا من نسخ الكتب ، لكن المؤلفين لم يتقاضوا أجرا على ما ألفوه .

* أنشئت المكتبات فى المساجد ، كما ضمت المدن الكبرى دورا

للكتب العامة كان يقصدها الجميع للاطلاع عليها وعلى ما يريدون ، كما حرص الأغنياء على اقتناء الكتب للفخر والمباهاة ، وأنفق العلماء أيامهم فى دراستها مع تلاميذهم .

* يرجع الفضل فى استمرار اللغة العربية وتبوئها مكانا مرموقا بين لغات العالم الى الجهود الجبارة التى بذلها العلماء فيما أرسوه من بناء فى مجال النحو والمعاجم اللغوية ، والعلوم الانسانية ، ودوائر المعارف ، وكان العصر عصرا ذهبيا أيضا للمؤرخين ، الذين ندين لهم بالشكر على ما سطروه من أحداث المملكة الاسلامية وما سجلوه لنا عن حياة الفلاسفة والعلماء ، وأخبار الملوك وكبار رجال الدولة ... وقد قام ابن النديم بأصعب عمل ، حيث سجل الكتب والمصنفات التى كتبت باللغة العربية .. اذ أنتجت الحركة العلمية الواسعة كثيرا من الكتب لم يصل الينا منها الا النذر اليسير ، فما أكثر ما اختفى منها فطواه النسيان .

٤ — النهضة العلمية :

* انتقلت المعارف اليونانية الى المسلمين عن طريق الترجمة ، فقد اهتم الخلفاء بالحصول على الكتب الطبية والرياضية من قصر القيصر البيزنطى عن طريق ارسال رسلهم الخاصة لهذا الغرض . وقام الطبيب النسطورى حنين بن اسحاق ومساعدوه بترجمة معظم مؤلفات « جالينوس » وتلامذته من السريانية الى العربية وكذلك أهم مؤلفات « أفلاطون » و « بقراط » و « أرسطو » فلم يأت منتصف القرن التاسع الميلادى الا وقد ترجمت مجموعة كبيرة من المراجع اليونانية فى الفلك والطب والرياضة الى اللغة العربية .

أهتم المسلمون اهتماما كبيرا بالمعارف اليونانية فى مجال الطبيعة ، ومالوا فى مجال الشعر الى الفارسيين ، ولكنهم اكتشفوا معارف هندية أيضا بجانب العلوم اليونانية فى مجال الهندسة فقد أخذوا العشر والصفر من المؤلفات الهندية الهندسية . وفى مجال الجبر — الذى يعرف فى اللغات الأوروبية باسمه العربى — توصل بعض علماء المسلمين فيه الى أشياء تنم عن عبقرية المسلمين فى هذه الأبحاث ، اذ توصل محمد ابن موسى الخوارزمى (٧٨٠ — ٨٥٠ م) من الأعداد الهندية الى رسم لكتابتها ، كان أساسا للرسم الأوروبى الحالى للأرقام الحسابية ، وظل

الجدول الفلكى الذى وضعه — وكذلك جدوله فى حساب المثلثات والمربعات المتساوية — المرجع الوحيد لعدة قرون • كما عرفت أوروبا حياته عن طريق ما ترجمه « Gerhard von Crimona » فى القرن الثانى عشر الميلادى ، فدخلت مصطلحات علم الجبر الى أوروبا عن طريق هذه الترجمة ، وهو ما ينم عن عبقرية فى مجال علم الحساب الفلكى •

* ترجم « جرهارد فون كريمونا » — وقد أقام فى « توليدو » باسبانيا وتعلم اللغة العربية — ما يقرب من مائة مرجع علمى من العربية الى اللاتينية ، ومن بينها « مبادىء الهندسة » و « اقليدس » ، و « المجسطى » لـ « بطليموس » ومؤلفات البطانى ، وأرشميدس ، والفارابى والخازن • ويرجع الفضل فى دقة حساب دورات كواكب الفضاء : الشمس والقمر والكواكب السيارة الأخرى لأبحاث البطانى •

* اختير كثير من الفلكيين الذين كانوا فى خدمة الخليفة المأمون النظرية البطليموسية فى هيئة الأفلاك ، فأثبتوا خطأها ، ووصلوا الى ما يؤكد أن مواقع الشمس وقطرها يتغيران ، وأن كسوف الشمس وخسوف القمر يقعان فى أزمان محددة ••• ويمضى المؤلف فى بيان أن المسلمين قطعوا شوطا كبيرا فى أبحاث الفضاء ، فكان عندهم الأدوات الهندسية مثل الزوايا والدوائر وتربيعها •• و •• و •• الخ وظل الشكل الاسلامى لحساب الدوائر مستعملا فى أوروبا حتى القرن السابع عشر الميلادى •

* ولما كان اتساع المملكة سببا فى تنشيط حركة التجارة شرقا وغربا ، تطلب ذلك معرفة الطرق والالمام بمسطحات الأرض ، فأدى ذلك الى البدء فى رسم الخرائط الجغرافية ، ووصف طبيعة البلاد • فقد وصف العرب فى عام ٨٥٠ م — أى قبل أن يكتب « ماركو بولو » مؤلفه عن الصين بعدة قرون — عادات الصينيين وتقاليدهم الاجتماعية ، اعتمادا على ما رواه أحد التجار العرب بعد رحلة قام بها الى الصين •• كذلك عرف العرب الكثير عن الهند وسيلان والصين مما كتبه الرحالة العرب ، كما ضم فتوح البلدان الذى كتب فى القرن التاسع الميلادى وصفا للمملكة الاسلامية بجانب ما سطر فيه عن كثير من البلاد والمناطق الأجنبية • وبعد مرور قرن آخر كتب محمد المقدسى أهم وأشهر مرجع فى الجغرافيا العربية • أما التاريخ فقد دونوا فيه المراجع الضخمة وعلى رأسها كتاب الطبرى « تاريخ الرسل والملوك » الذى دون فيه أخبار العالم من البدء حتى عام ٩١٣ م ••

* لم يكن عند المؤرخين وكتاب السيرة نظرة فاحصة لما يسجلونه من أخبار ، فقد كانوا دوائر معارف ، ولكن لم تؤد بهم غزارة مادتهم الى نظرة شاملة ، تجمع شتات ما تناثر فى صورة كلية ، اذ دفعهم ولوعهم الخيال الى خلط الأساطير بالحقائق التاريخية •

* كان البيرونى (٩٧٣ — ١٠٤٨ م) نموذجا للعالم ذى المكانة العالمية فى تلك الحقبة التاريخيـــة ، فقد عاش فى كنف الأمير محمود الغزنوى — فى المنطقة التى تعرف الآن باسم أفغانستان — فاستطاع بمكانته العلمية أن يحمل الأمير على الاقتناع بما يبديه من آراء وتقديم المساعدة له لمواصلة البحث والاختراعات ، لأن محمود الغزنوى اشتهر بانجازاته الضخمة فى الجانب الحربى ، الا أن أعماله فى الجانب السلمى ملأت العديد من كتب العلماء ، ثم يمضى المؤلف فى بيان جهود البيرونى أثناء مصاحبته لجيش محمود الغزنوى الى الهند فى تسجيل ما رآه فى الهند من حضارة ولغات وأجناس وطقوس وعبادات ، ونشر هذا فى عام ١٠٣٠ م ، ومن الموضوعات التى اهتم بها أكثر من اهتمامه بالمسائل السياسية الدين والأدب والفلسفة ولا يقل ما سطره فى هذا الكتاب فى مجال الفلسفة عن نظيره فى الفلسفة اليونانية • كما أبدع فى مجال الفلك والرياضيات ، فكان من أشهر علماء ذلك العصر ، الذى لم يقتصر العلماء فيه على مجال علمى واحد ، بل انشغل معظمهم بعدة مجالات ، فكانوا دوائر معارف ، فالكندى الطبيب كتب عن انكسار الضوء ، كما كان يعتبر أول فيلسوف عربى • كذلك الرازى الذى اتجه كطبيب الى البحث عن أسباب بثرة الجدرى والحصبة أثبت جدارة فى مجالات : الكيمياء وعلوم الدين والعلوم الفلكية والفلسفية •

* اعتمدت كل نظريـــات علم النجوم فى القرون الوســـطى على أبحاث الكندى فى مجال الفضاء ، اذ بعد ما ضعف مستوى الأبحاث فى هذا المجال بعد تحول الدولة الرومانية الى المسيحية انتقلت هذه المعارف الى العرب عن طريق بيزنطة ، وفى نفس الوقت تخلت أثينا عن موقعها كمركز للأفلاطونية الحديثة • فانتقلت المراكز العلمية للرياضيات والطب والكيمياء والفلسفة الى فارس ثم انتشرت فى جميع أرجـــاء العالم الاسلامى • وعبر سوريا انتقلت انجازات عصر قياصرة الرومان والعصر الاغريقى فى مجال علم النجوم الى العرب ، فأصبحت بعد ترجمتها علوما عربية ، تناولها العلماء بالبحث والتمحيص • فزادوا فيها ، وصححوا

ما أثبتت الأبحاث أنه خطأ فقد كتب الكندى عن اشعاعات النجوم التى لها تأثير قوى على كل الكائنات الحية .. ويمضى المؤلف فى بيان ما توصل اليه الكندى فى عالم النجوم مؤكدا على عروبته — أى أنه ينحدر من أصل عربى — ومبينا سير كثير من العلماء والمسلمين الذين ينحدرون من أصول غير عربية . وبعد أن يسرد أسماء العلماء الذين اهتموا بأبحاث الفضاء ويشرح نظرياتهم يقول : ان بغداد كانت مركزا للأبحاث الفضائية فى هذا العصر ، وأن جهود العرب فى هذا المجال دفعت علماء أوروبا فى ذلك العصر الى الاهتمام بهذا النوع من الأبحـــاث ، ثم يذكر أسماء العلماء الأوروبيين الذين تعلموا فى معاهد عربية منهم :

« جربرت فون أوريلاك » .. (تقلد منصب البابوية فيما بعد تحت اسم « سلفستر » .. الثانى ، ومات فى عام ١٠٠٣ م) اهتم بما كان يدور فى « توليدو » — ملتقى الرســل والوفود الى المعاهد العلمية العربية — من أبحاث ومناقشات ، وعلى الأخص : الرياضيات ، وعلم النجوم ، فبرع فيها لدرجة أن الشعب اعتقد أن بينه وبين الجن صلة .

* « دانيال مورلى » : درس فى « توليدو » علم النجوم العربى ، ودون معارفه التى اكتسبها من هذه الدراسة فى كتاب .

* ويمضى المؤلف فى بيان من تحدثوا فى كتبهم عن العلماء العرب وتأثيرهم على العلماء الأوروبيين ، ثم يختم الباب بقوله :

« ومن الطبيعى أن الأفكار العربية وصلت الى الشعوب الأوروبية عن طريق علمائها »

٥ — الطب فى مجالى البحث والممارسة :

* ارتفع مستوى المعيشة فى المملكة الاسلامية ، فأدى ذلك الى الاهتمام بالفرد ذلك أن الانسان لا يريد الثروة فقط بل يتمنى أن يعيش سليما معافى ، فكانت هذه الأمنية سببا فى رفع مكانة العلوم الطبية ، وفنون التمريض ، والأبحاث الكيمائية فازدهرت الصيدليات ومحلات العقاقير الطبية ، وربح تجار الأدوية ، أموالا طائلة

* وصل الأطباء المسلمون بفن العلاج الى مستوى الكمال ، أما فى الجراحة فقد تعلموها فى الغالب نظريا ، لأن رجال الدين حرموا عليهم التشريح ، الا أن المعارك الحربية هيأت لهم ظروف تطبيق ما تعلموه

نظريا عندما كانوا يعالجون الجرحى ؛ كما أخذوا بعض التمرينات للعمليات فى تشريح الحيوانات .

* أنشئت أول مستشفى فى بغداد فى عهد الخليفة هارون الرشيد ، ثم ما لبث أن افتتحت مستشفيات مماثلة لها فى جميع أنحاء المملكة . وكان أشهرها « بيمارستان » دمشق ، فقد توجه اليه الأطباء للحصول على الدرجات العلمية التخصصية ، وأمه الطلبة للتدريب على ما يحتاجون اليه فى امتحاناتهم كما كان فيه قسم خاص للاسعافات العاجلة .

* امتدت الرعاية الطبية الى جميع أنحاء الدولة ، اذ كان الأطباء يزورون السجون من آن لآخر لعلاج المسجونين ، كما قاموا بزيارات مماثلة للقرى النائية واهتم الأطباء أيضا بعلاج الأمراض النفسية ، فلم يتجنب المسلمون المرضى ، وينظرون اليهم نظرة احتقار ، كما كان يفعل الأوروبيون معهم آنذاك ، واستمرت هذه المعاملة قرونا ، فقد ظل المريض نفسيا محتقرا فى أوروبا وكان الأوروبيون يفرون منهم كما يفرون من مرضى الجزام ، ويتجنبونهم ، كما يتجنبون المجرمين .

* كانت رعاية المرضى سببا فى اكتشافات جديدة فى مجال الأدوية ، ذلك المجال الذى أصبح علم العرب الذى لا ينازعهم أحد فيه اذ اكتشفوا العديد من المستحضرات الطبية ، واستعملوا كثيرا من الأعشاب فى علاج المرضى ، وأثروا هذا المجال باختراعاتهم العديدة .

* ظهر العديد من المراجع الطبية فى هذه الحقبة الزاهرة فى تاريخ الطب العربى ثم انتقلت عبر اسبانيا الى أوروبا ، فكانت أسس علم الطب فى مدارسها العليا لعدة قرون .

* ومن بين من كتبوا هذه المراجع : الرازى ، فقد اشتهر فى أوروبا بأبحاثه الطبية ، وخاصة ما تناول فيها مرض الجدرى والحصبة ، فقد ترجمت مؤلفاته الى اللاتينية وطبعت طبعات عدة على امتداد عدة قرون وكان آخرها طبعة نشرت فى انجلترا فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وحرصت جميع المكتبات الأوروبية على اقتناء نسخ من مؤلفات الرازى ، كذلك أطلق الأوروبيون على ابن سينا لقب « أمير الأطباء » فقد أثرى المكتبة الطبية بأبحاث طبقت شهرتها الآفاق ، فلا يجهل من له صلة بعلوم الطب كتابه : « القانون » الذى بلغ شهرة لا مثيل لها بعد ترجمته الى اللاتينية ، بما يضمه من أبحاث عن علم الصحة ، والفسيولوجيا ، وطرق

العلاج ، والأدوية ، وأمراض العيون وغير ذلك من المجالات التى لم يسبقه أحد فى بحثها .

* كان ابن الهيثم من أشهر أخصائى أمراض العيون ، فقد كتب عن البصريات وانكسار الضوء ، والرؤية بالعدسات ، وأهمية الحجرة المظلمة فى عيادة طبيب العيون للتشخيص والعلاج ، وقد انتفع « روجر بيكون » و « كيبلر » بهذه الأبحاث .

* وكان أبو القاسم — الاسبانى المولد — أشهر جراح فى ذلك العصر ، فقد باشر فى عالم الجراحة أعمالا لم يجرؤ أحد من قبله على القيام بها ، كما استعمل أيضا فى الخياطة الداخلية لأول مرة نوعا لا يحتاج الى نزعه ، بل يتآكل كيماويا داخل الجسم .

* كما أحيطت شخصية الكيميائى الطبيب جابر بن حيان فى القرون الوسطى بهالة من القصص العجيبة ، التى تتعلق بتجاربه الكيميائية فى خامات الاحجار الكريمة وصبغ الجلود ، والنسيج ، وطلاء المعادن .. و .. و .. الخ . والحق أن العرب توصلوا الى أن التجربة هى أساس البحث ، وذلك هو ركيزة العلم الحديث .

* وعندما أصيب المجال العلمى فى الشرق بضربة قاضية على يد المغوليين فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، اهتم المرينيون فى أسبانيا — بعد سقوط قرطبة فى يد المسيحيين — ببعض المجالات العلمية التى لعبت دورا جوهريا فى اتساع المجالات الفكرية الأوروبية وكان التقارب الوثيق بين العقل الاسلامى والمسيحى سببا فى دفع تيار خصب عبر الطريق المفتوح بينهما الى العالم الغربى المتخلف .. الذى أسهم رجال الكهنوت والأمراء بنصيب وافر فى تجميد فكره ، وبقائه فى بحر الظلمات . بينما كان العالم الاسلامى يسطع بنور العلم والمعـرفة .

* كما نقل الانجليزى « روبرت أف شيستر » علوم العـرب الكيميائية — كما نقل كثيرون غيره مختلف العلوم والمعارف العربية الى أوروبا — من أسبانيا الى انجلترا فى القرن الثانى عشر الميلادى ، ومن هناك انتقلت الى البلاد المجاورة .

* وصل وطن العلوم العربية الى ذروة المجد العلمى فى القرن العاشر الميلادى ثم بدأ رجال الدين فى تقييد حرية البحث الحر ،

بحجة أن العلم أضعف العقيدة فى المجتمع ، وحجب بهاءها ، ورونقها فعجزت عن التأثير فى الحياة الاجتماعية ، كما فقد العلم مكانته عند الناس عندما أخذت سلطة حماته والمؤيدين له طريقها الى الانحدار • وهكذا مات الجذر ، ولكن فروع تلك الشجرة العملاقة أورقت وأثمرت فى ذلك العصر ثمرا طيبا فى أسبانيا — البعيدة عن الوطن الأم للعلم العربى ، موطن البذرة ، ومكان الجذر الذى أنبت تلك الشجرة — ، اذ أصيبت البلد بحمى الترجمة كما لو كان الوقت المتاح لنقل هذه العلوم النفيسة محددا بمدة قصيرة • وهكذا نقلت المـادة الجوهرية من الشرق الى العلم الأوروبى ، فدفعه هذا الدعم الى التطور الذاتى •

٦ — الأدب :

* لم يعثر الباحثون فى أدب المجتمعات الاسلامية على الرواية الطويلة ، لأن شعوبها كانت مغرمة بالقصص القصيرة التى تتلى بصوت عال وتروى بين الناس شفاها فقد نالت اعجابهم روايات « بيدبا » التى ترجمت من الهندية الى الفارسية فى القرن السادس الميلادى ، ثم ترجمت فى القرن الثامن الى العربية وكانوا مغرمين أيضا بقصص ألف ليلة وليلة ، التى ترجمت أيضا من الفارسية الى العربية فى القرن العاشر الميلادى ويدل بناؤها الفنى على أنها تعتمد على أصل هندى •

* اتسعت دائرة هذه المجموعة الهندية الفارسية فى النص العربى بما أضيف اليها من قصص هارون الرشيد ، وبما دخلها من روايات مصرية ويهودية ، ثم تكون من هذه المجموعات المختلفة وحدة عرفت باسم « ألف ليلة وليلة » ، اشتهرت بعض أجزاء هذه المجموعة فى ايطاليا فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، ثم ترجمت كلها الى الفرنسية ونشرت فى عام ١٧٠٤ م وبعدها انتشرت فى أوروبا كلها ، فاكتسبت شهرة فى المنتديات الأدبية وبين عامة الشعب ، وظل كتاب « ألف ليلة وليلة » من أوسع الكتب انتشارا حتى عصرنا الحالى • ومن القصص التى لاقت رواجا كبيرا أيضا ما كتبها بديع الزمان الهمزانى ، لأنها صيغت بأسلوب شيق جذاب •

* اعتمد انتشار الأدب قبل اختراع الطباعة على فن الالقـاء وحسن استماع الناس وتلك طبيعة تعمقت جذورها فى المجتمعات عن طريق التمرين الطويل •

* كان قرض الشعر دليلا على الثقافة والاطلاع الواسع فأدى ذلك الى المنافسة فى هذا المجال • منافسة دفعت الى خلق قصص البطولات المبالغ فيها • كما تسببت فى ابتكار الصيغ الفنية الرائعة فى الأدب • تلك الصيغ التى كان لها الفضل فى وجود الجوانب الفنية فى الشعر الأوروبى •

* جمع أبو الفرج الأصفهانى فى العصر العباسى كتابه « الأغانى » وكان ذلك فى القرن العاشر الميلادى ، وتدل مادة الكتاب — الذى بلغ عشرين مجلدا — على أن الفن الأدبى والثقافة بلغا شأوا بعيدا فى هذا العصر ، وأن الشعراء تبوأوا مكانا ساميا فى بلاط الخلفاء وقصور الأغنياء ، الا أن اهتمام الحكام وأصحاب الثروة بالشعر والشعراء ، وتلبية الشعراء رغبة من يدفعون المال ، هوى بالشعر من عليائه ، فأصبح موجها من خزائن الأغنياء ، لا تعبيرا عن وجدان الشعراء ، ولهذا يرى بعض النقاد أن الشعر فقد مكانته التى تبوأها فى العصر الجاهلى •

* الحرب والحب : هما الموضوعان الرئيسيان اللذان دار حولهما الشعراء وعندما هدأت موجة الفتح ركز الشعراء على الحب وقصصه وأساطيره ، فرسموا له صورا وردية وأحاطوها بهالة من الخيال اللانهائى ، وسرعان ما انتشرت هذه المفاهيم فى أنحاء العالم الإسلامى وانتقلت بعض جوانبها عبر مصر وشمال أفريقيا وأسبانيا الى ألمانيا •• ثم تناول المؤلف سيرة أشهر الشعراء ومنهجهم فى الشعر مثل أبى نواس والمتنبى وأبى العلاء المعرى وبين اسهام الفارسيين مع العرب فى هذا المجال وفصل الحديث عن الفردوسى ، الذى قضى ٣٦ عاما فى تأليف « الشاهنامة » ، كما ألف « يوسف وزليخة » وهى تعادل فى طولها ملحمة « الالياذة » •

* لم يرفع الفردوسى بتأليفه « الشاهنامة » الأدب الفارسى فقط الى مرتبة سامية بل أضاف الى الأدب العالمى احدى الملاحم الشعرية الكبرى التى لا زال الشعب الفارسى يفخر بها حتى الآن • وكانت سببا فى دفعه الى الانتاج الغزير فى مجال الشعر • فقد ظهر بعد الفردوسى ، الخيام ، صاحب الرباعيات التى اشتهرت فى أوروبا بعد أن ترجمها « ادوارد فريتس جيرالد » •• فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ، وكذلك نظامى ، الذى كانت أفكاره متعارضة

مع أفكار الخيام ، اذ بينما كان الخيام يميل الى الفجور وشرب الخمر ، كان نظامى تقيا ورعا يكره الخمر ويتجنب مواطن الريبة •

* لبس موضوع الحب فى الشعر الفارسى رداء دينيا ، فتحول الى حب صوفى ، وممن حملوا لواء هذا النوع من الشعر فريد الدين العطار ، وجلال الدين الرومى ، وابن الفارض •• ويمضى المؤلف فى بيان صلة الشعراء بالقصور والأغنياء ، وموضحا اتجاهاتهم ، سواء كانت فلسفية تشاؤمية ، أو دينية تأملية ، ومشيرا الى ما ترجم منها الى اللغة الألمانية وتأثيرها على الشاعر الألمانى « جوته » •

* كان انتاج الأدب الاسلامى بعد هذا العصر الكلاسيكى قليلا فى مجال الابتكار ، فقد ظل يدور لعدة قرون فى حلقة التقليد ، أما الابتكار فكان نادرا ، اذ دار الشعر حول وصف الرحلات وأسفار الأمراء ، ثم اهتم الاستعمار فى العالم الاسلامى بادخال الأدب الأوروبى الى المنطقة ولم يبدأ الاهتمام بالأدب القديم فى العالم الاسلامى واضافة مبتكرات جديدة اليه ، الا بعد ظهور النزعات القومية فى العصر الحديث •

٧ ــ الاقتصاد والتجار وشئون المواصلات :

* بينما كانت الطبقات الحاكمة فى أوروبا ــ سواء كانت قسسا أم أمراء ــ تنظر الى التجارة وما يتعلق بها نظرة ازدراء واحتقار ــ وظل هذا المفهوم مسيطرا عليها حتى القرن الحادى عشر الميلادى ــ سيطر العالم الاسلامى على شئون التجارة فأصبح التبادل التجارى محتكرا فى أيدى المملكة الاسلامية • اذ لم يكن هناك بين أقطارها الشاسعة حواجز جمركية ، ولا حدود تقف مانعة أمام تبادل البضائع اللازمة لضرورات الحياة ، فازدهر الاقتصاد فى ظل قواعد التجارة وشئون المواصلات التى بلغت حد المثالية ، لدرجة أن النشاط التجارى سار فى البر والبحر بأقصى سرعة دون هدوء أو توقف ، واستطاعت العقلية التجارية عند التجار المسلمين فى ذلك الوقت الحصول على أرباح طائلة •

* بعثت كثرة الامكانات المتاحة فى مجال التجارة النشاط المحموم فى صغار التجار ، وحركت البدو لتوسيع نشاطهم فى مجال تربية المواشى ، ودفعت الفلاحين الى الاكثار من زراعة الحبوب والفاكهة

والنباتات الأخرى • كذلك شق الخلفاء القنوات ، فزرع قصب السكر والقطن والبرتقال ، فأورقت مناطق فى العالم الاسلامى واخضرت بشكل حمل الناس على أن يطلقوا عليها جنات الأرض ؛ ومن تلك المناطق : المنطقة الواقعة بين بخارى وسمرقند ؛ وجنوب فارس وجنوب العراق ومنطقة دمشق •

* درت تجارة المعادن والأحجار الكريمة ربحا كبيرا على العالم الاسلامى ، على الرغم من تعثر عمليات استخراجها من باطن الأرض • أما الورق فقد أقيمت مصانعه منذ القرن العاشر الميلادى ، كما نشأت حرف مهنية عديدة ازدهرت تحت رعاية النقابات المهنية ، التى تعهدتها بالرعاية والتسويق •

* أنتجت الموصل القطن الموصلى ، كما اشتهرت مصر وسوريا وفارس بالبضائع المصنعة ، وعرفت دمشق بالدمقس ، وعدن بالصوف • تعلمت أوروبا من المسلمين صناعة الحفر وزخرفة المعادن ، ورسم الأشكال الفنية بمادتى الذهب والفضة على البرونز فقد نشأت هذه الصناعة فى مصر ابان العصر المملوكى ؛ ثم انتقلت الى سوريا ومنها الى فينيسيا • كما وجد فى المملكة الاسلامية من يهتم بصناعة الزجاج والبلور والأوانى ؛ والسيراميك ؛ وأدوات العطور والزينة ، والزيت والصابون والسجاد •• الخ لأن مساحة الدولة كانت شاسعة فضمت أناسا مختلفى الاهتمامات ، ومتنوعى الأمزجة مما جعل لكل صناعة منتجا ومستهلكا • لقد تركت صناعة الزجاج أثرها فى أوروبا حيث يجد المرء فى الكنائس والمتاحف أعمالا فنية رائعة تحمل بصمات المسلمين •

* جابت قوافل التجارة — التى كانت تبلغ أحيانا آلافا من الجمال المحملة بالبضائع — العالم الاسلامى ، اذ كانت تخرج من بغداد الى كل اتجاه ؛ الى الشرق حتى حدود الصين ، والى الغرب حتى الشواطىء السورية ؛ فنشأت على طريق القوافل محطات لتزويد المسافرين بما يحتاجون اليه من طعام وماء ثم تطورت هذه المحطات الى مستوطنات ؛ فمدن كبيرة •

* استقبلت السفن فى موانىء الخليج وشواطىء البحر الأبيض المتوسط البضائع المنقولة اليها من داخل البلاد ونقلها الى ما وراء البحار ، اذ عبرت نهر الفولجا الى البلاد الاسكندنافية ، والبحر المتوسط الى أسبانيا وما وراءها • ويدل ما وجد فى الحفريات من

العملات الاسلامية على مدى الانتشار الواسع للتجارة الاسلامية فى ذلك العصر •

* أثرت الطبقة الحاكمة من التجار ثراء فاحشا ، وأصبحت حياة الترف التى كان يحياها نسبة قليلة من السكان قائمة على ازدهار الأعمال التجارية ، فقد كان المال المستثمر فى التجارة وفى أعمال القوافل يدر فوائد ربوية على أصحابه ، على الرغم من تحريمها رسميا • كذلك تسبب النشاط المالى فى خلق فرص عمل لأعداد لا حصر لها من العبيد ، ولم يكن الاسترقاق قاصرا على جنس دون آخر ، فكما ضم زنوجا من أفريقيا ، كان من بينهم أيضا أتراك ، وصينيون ، وبيض من روسيا وأسبانيا وايطاليا • وعلى الرغم من أن القرآن الكريم قصر الاسترقاق على أسرى الحرب وأبناء العبيد ، فقد تعدى الناس هذه الوصية ، فشمل الاسترقاق أناسا لم يكونوا أسرى حرب ، ولم يكن آباؤهم عبيدا ، اذ جلب العبيد بطرق شتى من جميع أنحاء الأرض ، حتى كثر عددهم فى المملكة الاسلامية وسببوا لها بعض المتاعب فقد كانت ثورتهم فى عام ٨٧٠ م خطرا على جميع الأنشطة الاقتصادية فى كل أنحاء المملكة •

* قامت التجارة والصناعة فى العالم الاسلامى على أساس النظام الاقتصادى الحر فأصبح المكسب المادى هدفا لكل طموح ؛ لأن الفكرة التى كانت سائدة فى المجتمع آنذاك : أن من كثر ماله ارتفع قدره بين الناس ، وعلى قدر ما يملك ينال من الاحترام •• ان من يقارن مفهوم ذلك العصر بما هو سائد اليوم فى مجتمعاتنا يدرك أن الوضع لم يتغير •

* * *